

هكذا تدور عجلة حياته
فتبدأ من نقطة وتعود إليها ،
ثم تبدأ وتعود بحيث لو شذت
عن الخط المرسوم مقدار ذرة
— كأن يتأخر عم خليل
بالقهوة دقيقة أو يدق الجرس
فيبطل الضابط لحظة في مفادرة
الحجرة — قلق واضطرب
واهتز رأسه يمنة ويسرة

أول البريك

للأديب نجيب محفوظ

مثله مثل النائم في ظل ساقية دائرة إذا وقف الثور
لعله انتفض مستيقظاً منزحاً ! إلا أن طارثاً من
الحدثان نزل بساحته أخيراً فبدل طمانينته رعباً
وسكينته قلقاً وتفاوتله تشاؤماً ، وكان الكاتب يعلم
بمخبيثته من دون الآخرين لأنه كان أحب الناس إليه
وأقربهم مودة إلى قلبه ، فلما رآه في هذا الصباح دنا
منه وفنجان قهوته في يده وسأله همساً :

— كيف حالك ... ؟ فأجابه بصوت ضعيف
تمزقه نبرات اليأس :

— يسير من سيء إلى أسوأ

— ألا يوجد بصيص أمل ... ؟

— أبدأ ... أبدأ ... لا يبيع ولا شراء ...

الحركة راكدة ... والديون متراكمة ... والتجار

يطالبون ويلحون ولا يعذرون ، وبات شبوح

الإفلاس منى قاب قوسين أو أدنى ... فإذا وقع -

ولا مرد له - خربت خراباً تاماً ودمرت حياتي

وحياة أولادي تدميراً وهويت إلى أعماق السجون

فتهد على أفندي من قلب مكسوم وقال بصوت

خافت :

— لا أمل في النجاة

في منتصف الساعة السابعة صباحاً وصل على
أفندي خليفة إلى المدرسة التي هو سكرتيرها ،
كمادته منذ خمسة عشر عاماً ، وبأشر أعماله بالأسلوب
الذي تعودده وألفه فصار قطعة من صميم حياته ، إذ أن
كل ساعة من حياته الحكومية كانت تسير على
وتيرة واحدة لا تبدل ولا تتغير : يدخل إلى « حجرة
السكرتارية » فيجني زملاءه - الكاتب والضابطين -
تحية الصباح ، ويجلس إلى مكتبه ثم يحضر عم خليل
بالقهوة والماء المثلج ، فيمضي في احتسابها وهو يتحدث
إلى القاعدين أو يستمع إليهم ، ثم يأخذ في فتح الدفاتر
ويراجع ويكتب . ثم تخلو الحجرة حين يذهب
الآخرون إلى فناء المدرسة لمراقبة التلاميذ وتنظيم
صفوفهم ؟ ثم يخف بعد ساعة من الزمن إلى لقاء الناظر
لمرض الأوراق واستشارته في بعض الأمور وتاق
الأوامر والارشادات . وإذا جاء اليوم الأول من
الشهر ازدحت حجراته بالمدرسين والموظفين وامتلات
يده بالأوراق المالية ، فلا يزال يوزعها حتى لا يبقى
إلا وريقات معدودات يودعها جيبه ساعة ريثما
يوزعها بدوره أشتاتاً على صاحب البيت والقصاب
والبدال

فسكت الرجل محزوناً ثم ذكر أمراً فسأله :

— وعمتك ... ؟

— أف ... أف ... لا رحمها الله في دنيا ولا
آخرة ... إنها تود لو تفقد ذاكرتها كيلا أخطر لها
على بال ... ولقد انقطعت عن زيارتها مضطراً منذ
حين لأنها لا تراني حتى تصيح في وجهي : « ماذا جئت
تصنع ؟ ! أنا لم أمت بعد ! » والمرأة تتبرع كل يوم
بمئات الجنيهات للجمعيات الخيرية لا حباً في الخير
ولكن كيلا تخلف لى مالاً بعد موتها المتوقع يوماً
بعد يوم

فهز الرجل رأسه أسفاً وقال :

— ليتك يا على لم ترم بنفسك في ميدان التجارة

غير المأمون ...

— هذا هو الكلام الذي لا جدوى منه ...

ومع هذا هل تنكر أن هذه التجارة هي التي يسرت
على أمري ، وجعلت عيشي رغداً ... وأعانتني على
تربية ستة من الأبناء ؟

قبل ثلاثين عاماً كان على افندى تلميذاً بالمدسة
الابتدائية يجتهد أن يفوز بشهادتها ، وقد جرت
حظه مرات في سنين متتامة ، فخاب مساه فيها
جميعاً ، حتى نفذ صبره وذوى أمله . ورأى أبوه أن
يفتح له حانوت عطارة في الفورية ، لبث فيه عامين
يناضل في معترك الحياة ، ولكن لم يكن حظه في
حانوته بأسعد منه في مدرسته ، فاضطر إلى إغلاق
الدكان ورجع خائباً إلى بيت أبيه . وهناك فكر
في أمر مستقبله طويلاً فوجد أن خير طريقة ،
أو أن الطريقة الوحيدة الباقية لديه هي أن يعود إلى
نبتش كتبه التي نسج عليها العنكبوت ، وأن يجرب

حظه مرة أخرى كتلميذ مجتهد وإن تقدم به العمر ؛
وفعل ونجح ، ووظف كاتباً في وزارة المعارف .
واطمأن إلى الحياة بعد أن أشرف على اليأس
والقنوط ، وغبط نفسه على عمله المضمون الرزق ،
وأحس في أعماق نفسه بفخار الرجولة ونشوة
الاستقلال . ولما كان عرضة للتنقل إلى أقاصى الوطن
آثر — عن حكمة — أن يتزوج . وقد جاب مختلف
البلدان في مصر العليا والسفلى إلى أن انتهى به المطاف
رجلاً في ذروة الرجولة إلى مدرسته الحالية فتقلب
في وظائفها جميعاً حتى رقى إلى وظيفة السكرتير

وكان على خليفة مثلاً للرجل العادي الذي

لا يخرج عن المألوف ، وأخذ جاداً صادقاً للأخلاق
المصطلح عليها والعادات والتقاليد التي يجري بها
العرف ، لا يشذ إلى اليسار ولا يجنح إلى اليمين .
وجد كل شيء جاهزاً فهش له وآمن به واتبعه ،
معتقداً مع المعتدين ، مستحسناً مع المستحسنين ،
ساخطاً مع الساخطين ؛ فإن عرفت جيله فقد
عرفته بغير محالطة ، وإن خبرته فقد خبرت جيلاً
أو — وهو الأقرب إلى الحقيقة — خبرت الشطر
الجامد من الجيل الذي يفتح التاريخ إلى ما وراءه
من الأحداث التي تخلق التاريخ . ولما تزوج
استولت عليه الحياة الجديدة ، واستبدت به ،
وتكشفت له حقيقته ، فإذا به « رجل بيت » بكل
معاني الكلمة ، فالبيت مأواه ولذته ، لا مقهى ولا
ملهى ولا سينما ولا حانة ولا أصدقاء ولا هوية ولا
أي شيء في الوجود بقادر على أن ينزعه من أحضان
بيته . وحين كان يعيش منفرداً مع زوجته كانت
حبيبه وأنيسه وجليسه ، فلما أن انبثت ذريته
— بنين وبنات — حايية ساعية لاعبة مشرقة

تفكر في أمر زواجه ، كي تراه رب أسرة وتسعد بمشاهدة ذريته ، إلا أن الأقدار فاجأتها بما لم يقع لها في حسابان ، فتتردى الابن كما تردى أبوه العزيز من قبل مصدوراً ميؤوساً منه ، وقضى بين السعال من جانبهِ والتنهد والبكاء من جانبها

انتهى كل شيء وأفقرت الدنيا من الأمل والعزاء ، وماتت حياة ودّفت مع ولدها الحبيب كل ما ميزها الله به عن الأحجار الجامدة ، وصدق عليها كل ما وصفها به أخوها من قبل وما يصفها به ابنه الآن ، فهي المرأة المعجوز القاسية المجنونة التي تكره الخلق وعلى رأسهم أقاربها ، وتسيء الظن بكل من يتقرب إليها ، وتخال أي زائر طامعاً في أموالها ، وتقتضي حياة الكبر طريحة الفراش مريضة القلب تسهر عليها ممرضة في بيتها المهجور كأنها مومياء في أحد معابد الكرنك الحزينة

هذه هي عمته التي قصد إليها بعد أن اشتدت وطأة الحاجة عليه ، وقد استقبلته استقبالا بارداً جافاً فلم يأنس في نفسه الشجاعة أن يفتحها فيما جاء من أجله ، ورح بيتها أشد بأساً مما طرقة

وقلب مسألته على جميع الوجوه فلاح له أن يشتغل بالتجارة وهو حل لا بأس به ولكنه شديد الخطورة بالنسبة لموظف حكومي . ولكنه لم ييأس واستعان بالكتمان والخفاء وبخبرته التجارية التي اكتسبها في أول عهده بالحياة العملية . فأنجز في العطاردة ونجحت تجارته ، وأقبلت عليه الحياة رغدة ، ولكن حال النجاح لم تدم ، فساءت الأمور ، وركدت السوق النافقة ، فجزع واشتد جزعه ، ولعبت يده في الدفاتر بنير الحق ، ولم ينفعه تلاعبه شيئاً ، وسارت الأمور من سيء إلى أسوأ ، واضطر (٥)

على أنحاء البيت ، كان له منها الحبيب والهوية والمأوى يسكن إليه

وكانت الحياة تسير في بادئ الأمر هنيئة جميلة ممتعة ، لا يكدر صفوها مكدر ، ولا يظلل صفحتها البضاء ظل من الحزن أو الفكر ، ولكنها لم تلبث أن فرضت عليه ضربتها التي لا تنفي منها أحداً من بني الإنسان ، حتى صارت عنواناً عليها ورمزاً لها ، وباتت الشكوى منها إنكاراً للحياة نفسها وجهلاً فاضحاً بأمورها ، فمات أبوه ونما أطفاله صبياناً وغلماناً وهجروا عشهم سعيًا إلى المدارس الأولية فالابتدائية ثم الثانوية ، وتعددت حوائجهم ، وتشعبت مطالبهم وتضاعفت نفقاتهم يوماً بعد يوم ؛ فانقلب يسر الحياة عسراً ، وراحتها تعباً ، وابتناسمتها تجهمًا ؛ وانسابت الهموم إلى كل جانب من قلبه ، وطفق يردد لنفسه أن كل شيء يهون إلا أن يشق أو يشكو هؤلاء الأبناء الأعزّة

وتذكر أن له عمّة أرملة غنية تعيش بمفردها في بيت كبير تحت رعاية ممرضة ، وكان يتجافها وينفر منها من طول ما بث أبوه في نفسه ، ففكر في أن يقصد إليها مضطراً

وكانت عمته امرأة في السبعين ، مات عنها زوجها — قبل أربعين عاماً — وهما في زهرة العمر وميمة الشباب ، وخلف لها ثروة طائلة وطفلاً وحيداً ، وقد ترك موت الزوج في نفس المرأة آثاراً عميقة مروعة تغلغت في صميم حياتها ، ولم تعف مع كثر الأعوام ودوران السنين . وأقبلت على العزاء الوحيد الذي بقي لها في دنياها تمنحه كل ما في قلبها الحنون من عطف وحذب وتغان وتضحية ، حتى شب طفلاً جميلاً ، ونما شاباً رقيقاً نحيلًا ؛ وبدأت

— تحت تأثير الخسران — إلى زيارة عمته مرات
وفاتها — على رغم تردد — في طلب المعونة ولكنها
كانت أشد عليه من حظه ومن الأقدار جميعاً ،
فرفضت أن تمد له يداً أو أن تميزه أذناً صاغية .
وفي ذلك الوقت بلغت الأمور شدة الفيضان الذي
لا يكون وراءه إلا الانفجار والمهلك ، فالعمة في
أشد حالات الشذوذ وسوء الطبع والمرض ، وعلى
أفندي على شفا جرف هار من الخراب والدمار ،
والتجار متدمرون جزعون ، يطالبون ويلحفون
ويطعمون على آذانهم فلا يسمعون ، وقد عينوا له أول
أبريل كآخر منزع في قوس صبرهم ، فإن لم يسدد دينه
ويسو حالته أشهر إفلاسه ، وليكن ما يكون بعد
ذلك من رفضه من وظيفته أو إيداعه السجن . . .
كل هذا ينتظره في أول أبريل . . . وما بينه وبين
أول أبريل إلا أيام معدودات . . . وقد نفذت حيلته
وسدت في وجهه المنافذ . . . ثم ماذا يكون من
أمر هذه الأسرة التي هي ثمرة حياته وعجيا آماله ؟ !
هذه الأسرة التي تعيش سعيدة مطمئنة غافلة عما
يهددها من الشقاء والبأساء ، اللهم إلا ربها الصابرة
القائمة التي تشارك الزوج أحزانه وتبادل هوميه
وتكتم في قلبها الكبير ما لو أطلقت لأحرق الدنيا
بأسرها من شدة ما به من هول ، ولأحرق أول
ما يحرق هؤلاء الأبناء السعداء الذين يرحون سادرين
كالأفراخ اللاعبة الغافلة عن القط الرابض لها
من قريب . . . وذكر في شدة حزنه أبناء فهرعوا
إلى مخيلته في صورة تفيض حياة وجمالاً . وكان
حسين ومحمد في المدرسة الثانوية فتيين ناميين يحملان
طلعة والدهما ورقة أمهما ، وهما وحافظ ويسن في
المدرسة الابتدائية وهم حياة البيت يحيا ويمتلي

هرجاً ومرجاً ماداموا فيه ، ويسكن سكون المقابر
إذا غابوا عنه ، وزينب أو زوزو في المدرسة الأولية
هوية الأسرة ولعبتها ، صبوحة الوجه ، سوداء
العينين ، مرسله الشعر ، كانت بنتاً بين ستة ذكور
كالياسمين وسط باقة من الورد الندي ، حبيبة إلى
كل قلب ، عزيزة على كل نفس ، حتى لكان هذه
الأسرة لم يتزوج فيها الوالدان ويولداً الأبناء إلا ليهيئوا
المقام لزوزو حيث كانت حسن الختام ونقطة الانسجام
فاذا يكون من أمر هذه الأسرة من بعده . . . ؟
بعد أن يرفض من وظيفته ويزوج به في السجن . . . ؟
أواه ! دون ذلك ويمكن المستحيل وتقع المعجزات
والخوارق . . . !

ولم يجد مناصاً من أن يذهب مرة أخرى إلى عمته
علها تلين بعد طول التصلب والصلف والقسوة ،
فسار في طريقه إليها — وكانت تقيم على مدى منه
قريب في شارع محمد علي — مهموماً متضيقاً بعمل
ألف حساب لتلك الزيارة الاضطرارية الثقيلة . يا لله
من هذه المرأة . . . ! ما لها لا تموت . . . ؟ إن حياتها
فرض ثقل عليها وعليه ، وإنها كالبنيان تهدم ينقع
فيه ناعق الخراب والمرض . ورغم هذا فذبول الحياة
ما تزال متشبثة بها . إن سعادة نفوس عزيزة رهن
بموتها فلم يبق الله عليها ؟ والمضحك المؤلم أنها قد
تموت فجأة بداء قلبها بعد اليوم الأول من أبريل
بساعات معدودات أو بعد القضاء عليه وعلى أسرته
القضاء المبرم . وقد ينفذ هذا القضاء العجيب كما
ينفذ أمثاله كل يوم وكل حين مما تختار في تعليقه
المقول ، وقديماً وقف موسى الكاظم حياله جزعاً
لا يستطيع معه صبراً ! وطرق الباب ودخل حيث
قابلته المروضة بانقسامه صفراء ذات معنى ، فسألها :

— كيف حالها ؟

فأجابته ببرود : بخير

ووصل إلى مسمعه صوت رفيع مبجوح دلت

بشاعته على أنه يخرج من فم خرب يسأل :

— من الذى تكلمين يا عائشة ؟

فارتجف جسمه وسرت فيه قشعريرة مثل مس

الكهرباء ، وتردد ، وجد ، ثم كرز على أسنانه ودخل

إلى الحجرة وهو يقول :

— أنا على ... كيف حالك يا عمتي ؟

فقدمت وقالت بتأفف وتبرم : على !

فأحنى رأسه ووقف صامتاً وعادت هى إلى

سؤاله قائلة :

— هل جئت حقاً لتطمئن على صحتي ؟

— نعم

— وهل يهيك أمر صحتي ؟

— طبعاً

— إذا لم تخلط السؤال عنها بسؤال شيء آخر ؟

فضرب كفاً بكف وقال بصوت حزين :

— لا تظننى بى الظنون ... فقد عشت دهرأ

لا أسألك شيئاً ثم ...

— ولم تكن تربى وجهك بتاناً ... ولم تكن

صحتي أمراً يهيك السؤال عنه ...

— بالله أعيربنى أذنأ صاغية ... لقد شرحت

لك أحوالى ... أنا مهرد بالخراب بين لحظة وأخرى .

اصرفينى عن ذهنك واذكرى أبنأى البؤساء وما

ينتظرهم من شقاء ...

— لم أر أبنأىك طول حياتى ...

فألنسه لهجتها النهمية وحمى رأسه بنار

الغضب ولكنه لم يكن فى حال يأذن له بإعلان

ما يظن ، فنظر إليها نظرة النمر الواقع فى الشرك وقال

وهو يجهد أن يجعل صوته هادئاً :

— إذا منعت عنى يدك دمرت لا محالة ...

وهنا هبت قاعدة فى فراشها وصاحت فى وجهه

— فى داهية !

— عمتى ...

— لست عمه لأحد

— لا تكونى هكذا

— هكذا أنا ... أعزب عنى ولا ترى وجهك

مرة أخرى

وحاول أن يقول شيئاً ولكن لم يسمعه الكلام ،

فجمد لحظة حيث هو ملهيب العينين ، محمى الرأس ،

مرتعش الأطراف ، ثم غاب عن ناظرها . ولقى فى

الخارج الممرضة واقفة تنصت ، فقابلته بنفس

الابتسامة وقالت :

— ككل مرة !

فهز رأسه غاضباً وقال :

— إنها شر ما فى الوجود ... إننى أعجب كيف

يؤاتيك الصبر على معاشرتها ؟

— إنى أقوم بواجبي ... وهى على كل حال

لا تعاملنى نفس المعاملة ...

وتوقف لحظة لا يدرى ما ينبئ أن يفعل ، فلاح

منه التفاتة إلى مائدة صغيرة رصت عليها زجاجات

الدواء فتمهد وقال بغير وعى :

لو يتأخر عنها الدواء دقيقة !

ولم تكن المرة الأولى التى تسمعه فيها الممرضة

يقول هذا القول فارتفعت لتكراره ورددت قوله

مرتبة :

لو يتأخر عنها الدواء دقيقة ! !

يعلم به قبل وقوعه ، وكم غير هذا الدمار -- مما يجهل --
قريب لا يستطيع حياله تصريفاً . حقاً إن الحياة
مأساة مؤلمة مضحكة ، ما الذى ينبغى أن يفعل ؟ ...
إنه يطرح على نفسه هذا السؤال للمرة المائة والألف
ولا يملك إلا تكراره وترديده كالحبول ... وقد سمع
فجأة صوتاً يقول :

حان الميعاد ...

فارتجف جسمه وأخلج قلبه في صدره ...
الميعاد ... إنه لا يفكر إلا في ميعاد واحد ولكن
الصوت استطرد مرة أخرى ضاحكاً :
الساعة تدور في الحادية عشرة فهيا إلى الوزارة
لاحضار المرتبات ...

حقاً إن اليوم يوم المرتبات ، ينتظره آلاف غيره
بفارغ الصبر فكيف نسي هذا ؟ وخرج متثاقلاً
مهموماً يولى وجهه شطر الوزارة ؛ وعلى حين فجأة
وبغير تمهيد واع اصطدم فكره الشارد المتوزع في
محيط الشقاء بفكرة وامضة ، فتنبهت حواسه ،
وشع من عينيه برق خاطف ، وأحاط به الرعب الذى
مسه حين التقت عيناه بعيني المعرضة في بيت عمته
بالأمس القريب . لاحت له هذه الفكرة في لحظة
سريعة جنونية ، رآها كمن يفتح عينين ناعستين في
الظلام فتلمحان على غير توقع شبح شيطان نارى ،
يهدد ثانية ثم يختفى تاركاً خلفه الصرع والجنون .
وقد جن بغير شك ، واستولت عليه الفكرة بقوة
مارد مستبد . أى رعب ، أى شر ، أى مصيبة ،
أى نجاة ، أى فكرة نيرة ، أى خلاص ، أى دمار ،
أى هول ، أنها تحمل جميع هذه المتناقضات إلى
نفسه المضطربة المريضة ، وإن من اليأس ما يمجز
عن قافلة ذرة من الرمال ومنه ما يرحل الجبال ،

فنظر إليها بسرعة مرتجفاً والتفت عيناها لحظة
فلح بينهما ما يشبه البرق ، ثم خرج مهرولاً وهو
يبتفض من هول ما خطر على باله ، وهبط السلم
مسرعا كأنما يفر فراراً ...

وجاء اليوم الأول من ابريل ، والأيام تسير في
دائرتها المفرغة غير عابئة بما تحمل للناس من مسرات
وأهوال لا اختلاف في هذا بين يوم التطير أو يوم
التفائل ، ولم يكن هذا اليوم جديداً في العام ولا
جديداً في حياة على أفندى ، ولكن خيل إليه هذا
الصباح أنه يستقبله لأول مرة في حياته بل عجب
كيف أمكن أن يوجد كبقية الأيام وكيف أمكن
أن يأخذ مكانه الطبيعي بين أيام السنة وهو يحمل له
نذير الخراب ولأمرته الشقاء والفناء ! ...

أواه ! إن مواعده مع التجار أصيل هذا اليوم ،
ولدى هذا الأصيل يتقرر مصيره . وانه ليعلم علم اليقين
أى طريق هو مولها بعد حين قليل ... بعد ساعات
سريعة الجريان ...

ومع هذا فما هو ذا يجلس إلى مكتبه يرتشف
القهوة ويقلب الأوراق ويشترك في الحديث مع هذا
وذاك ، وكل من حوله منصرف إلى عمله ، والتلاميذ
في الفناء يضجون ويلعبون ، والحجرة هي هي ،
والدرسة هي هي ، والدنيا كلها هي هي ، كأن شيئاً
لن يحدث ، وكأن دماراً مروعاً لا يوشك أن ينزل
بحياة أسرة كبيرة فيذروها ذر الرياح ! !

والمضحك بعد هذا أن يقال إن الإنسان
حيوان عاقل ، وهل يستطيع إنسان أن يرد بنور
عقله قضاء يمجز الحيوان عن رده لانعدام عقله ؟
ها هو ذا لا يستطيع أن يصرف عن نفسه دماراً

تصل إليه أبدأ . وكان قد دبر الأمر كله في عقله ولكنه شعر في تلك اللحظة بأنه في حاجة إلى معاودة التفكير مرة أخرى من مبدئه كأنه لم بطرقه بعد . وهنا اعترضت الطريق عربة كبيرة عرقلت حركة المرور فاضطر السائق إلى إيقاف السيارة ، فنظر إلى الأمام ليستطلع ما هنالك فرأى العربة وإلى جانبها شرطى يهدد سائقها ، رباة ! لقد أربعه مشهد الشرطى وأثلج دمه في عروقه ، وهم أن يأمر السائق بالرجوع ... وعلى حين فجأة سمع صوتاً يناديه قائلاً :
— بابا ...

قالت مذعوراً فرأى زوزو واقفة على سلم السيارة ، ووجهها الجميل قريب منه ، وكانت تمسك بحقيبتها في يد وتعالج بالأخرى الباب لتدخل إلى أبيها . فلما كان لها ما أرادت جرت إليه فرحة مسرورة ، فتمسك بيده وسألها بسرعة ولهجة جافة :
— لم أنت هنا ؟

— أنا آتية من البيت حيث كنت أتناول غدائي وذهبت إلى المدرسة
— حسن ... حسن ... هيا إلى المدرسة بسرعة لنلا تناخري

— انتظر ، عندي لك خبر سار ... هل تشتري لي شيكولاته نسله إذا قلته لك ؟
— ليس الآن ... هيا ... هيا ...

— عمتى ...
— فخرحت البنت لأنها لفتت انتباهه إليها وقالت :
— ماتت

— ماتت عمتك ! !

وقد جرى منطقته المحموم في طريق ذى عوج : إذا سرق كان جزاؤه المحتوم الرفض والسجن ، ولكن إذا لم يسرق لم ينج لا من الرفض ولا من السجن ... إلا أن النتيجة مع السرقة تختلف ، فهو بها يستطيع أن يكسب التجار وينقذ تجارته فيضمن لأسرته — وأسرته هي قطب تفكيره — حياة رغدة سعيدة ، بل إنه ينوى ما هو شر من هذا وأعظم رعباً ، إنه ينوى أن يراود المرضة — بسلطان المال — على ... !! حقاً إن هذا فطيع مخيف ... ولكن تأخير الدواء لحظة كفيل بالقضاء على تلك المرأة الشريرة ، التي تقع من حياته موقع الزائدة الدودية المتهبة ... حقاً إنها جريمة نكراء ولكنها مضمونة العاقبة وعادلة من الوجهة الإنسانية ... ونفاذاها يضمن لأسرته أرغد العيش وأطيبه . وهب أن المرضة أبت عليه تحقيق غرضه فلن يضره إبؤها شيئاً ، وتبقى بعد هذا تجارته ، وهذا شيء مؤكد . نعم إن السجن لا مفر منه ولكنها سنوات قلائل يقضيها — مع الاطمئنان على أسرته — صابراً ويخرج بعدها كي يتمتع بعيشة هائلة ثرية في مكان سحيق ... كل هذا واضح بئس ولا بد من تنفيذه بدقايقه ، وإيكن بعده ما يكون ...

واستلم المال واستقل « تاكسى » وقال للسائق بصوت حائل ما استطاع أن يجعله هادئاً : إلى شارع محمد علي . نعم إلى البيت لا إلى المدرسة حيث يجد متسعاً للتفكير والتدبير ، كم هو مرتعب خائف ، إن أسنانه تصطك ، وأطرافه تنتفض ، وأجفان عينييه تتصلب ، وريقه يحف ، وأنفاسه تبطى ، وتثقل كأن يداً جبارة تحنقه

ووصلت السيارة إلى شارع محمد علي ، ودلو لم

والظاهر أن المرأة تأثرت من الفضب الذي تملكها فجأة فسقطت على الخدة من الإعياء والجهد وصدرها يرتفع وينخفض . ووقف أمامها مبهوراً جامداً كالتمثال ، ذاهلاً لا يستطيع كلاماً ولا حركة كأنه ينظر إلى شبح مرعب لا إلى امرأة عجوز منهوكة القوى . وما أحس إلا يد الممرضة تسحبه إلى الخارج ، فاستسلم لها طائماً وغادر البيت دون أن ينبس ببنت شفة

وقطع الطريق إلى بيته والذهول مسدول عليه ، وكان البيت يخيم عليه السكون - كمادته - إذاً الأولاد في المدرسة ، فظنت زوجه لأول وهلة أنه آيب من مكان عمله كمادته اليومية ، ولكنها ما لبثت أن طالعت ما يكسو وجهه من آيات التجهم والذهول فتعلمتها الروع والذعر وظنت أن ما تشفق من حدوثه وترجو الله أناء الليل وأطراف النهار دفعه قد وقع ؛ وفزعت إلى سؤاله وهي أكره ما تكون للسؤال :

— ما بالك ؟

فسألها بدوره بامتناع :

— أين زوزو ؟

— لعلها في الطريق إلى البيت ...

فصاح بغضب :

— هذه الطفلة الشريرة !

— زوزو شريرة ؟

— قابلتي في الطريق منذ ساعتين وكذبت

على الشيطانة قائلة إن عمتي ماتت

فصربت المرأة صدرها بيدها وقالت بدهشة :

— كيف تجرؤ ؟ من أين لها هذا الكذب ؟

هذا أمر عجيب .. بل إنه أعجب شيء أسمعه في حياتي ..

فرت هذه العبارة من فمها في صراخ مدوّ ...
فازداد فرح الفتاة وقالت :

نعم ... هذا ما قلته لي حميدة « الخادمة » لما سألتها عن تنيب ماما على غير عادتها

وصرف زوزو بمد أن وعدّها خيراً وأمر السائق وهو يلهث بالذهاب إلى المدرسة ، نعم إلى المدرسة ليسلم بدوره الأمانة إلى مستحقها . لقد أتاه الفرج دفعة واحدة . لقد أنقذ بعد أن تدلى جسمه في الهاوية ، أنقذ من الافلاس والخراب والسرقة والجريمة والسجن . رباه ! انه لم يقدر هذا ولم يحلم به أبداً وما كان في مكنة مخلوق مهما رسخ إيمانه أن يقدر هذه النهاية أو يحلم بها ... فالحمد لله ... الحمد لله ...

وانصرف من المدرسة سريعاً قاصداً بيت « المرحومة » ووجده كما تعود أن يراه هادئاً ساكناً لاصوت ولا نجيب . فطرق الباب ثم دخل ، وقابلته الممرضة وكانت محافظة - برغم كل شيء - على هدوئها ، وقد سأله منكرة :

— أجبني مرة أخرى ؟

فنظر إليها دهشاً وقال :

— ما أغرب سؤالك ... ألسنت على كل حال

ابن أخيها !

واجتاز بها مسرعاً إلى حجرة التوبة ... فراها مستلقية على ظهرها ورأسها مائل نحوه ، مفتحة العينين ، بل رآها - وهو الأدهي - تنصب قاعدة وتشير إليه بيدها الضعيفة مهددة وتصيح في وجهه :

— كيف تجرؤ ؟ كيف تتجاسر ؟ ألم أطردك

طرذا ؟ أخرج ... أغرب عن وجهي ...

إلى حجرته حزينا كئيبياً ينوء بالهم والفكر، ولحقت به زوجته وانتبذت ركناً من الحجرة في صمت ووجوم ووقفت رmqه بعينين كئيبتين وقلبها يحدها بدنو شر مستطير، ولسكنها لم تجرؤ على تمزيق هذا الصمت الغليظ. انتهى الأمر وخابت المحاولة الأخيرة وأذن الخراب بالوقوع

هل ينتحر ويضع حداً لهذه الحياة القلقة المنغصة؟ لقد اضطرب عقله بهذه الفكرة الهائلة لحظة، ولسكنه تقلب عليها وفندها قائلاً لنفسه: «إذا انتحرت فمن للأولاد؟...» ولم يجد أمامه سوى الاستسلام والنزول عند حكم القادير

وظل الصمت نخباً يزهرق النفوس، والمرأة واقفة حيث هي، وهو قاعد على السكينة مسنداً رأسه إلى كفيه، وقد ظهر رأس زوزو من الباب لحظة ولاحت عينها تدوران بين والديها، ثم ارتدت مسرعة، قارة مضطربة

ولبنا على حالهما لا يشعران بفوات الوقت حتى تيقظا فجأة على طرق الباب ووصلت إلى مسمعيهما أصوات الأولاد، وهم يدخلون واحداً واحداً يتقدمهم فيجيحهم وجلبتهم، وقد دبت الحياة في البيت وتحول في ثانية إلى سوق، وعلا صياح من هنا وصراخ من هناك، وسمعت أصوات تنادى، وأخرى تسب وتلعن، وثالثة تنشد بعض الأناشيد المدرسية، ورابعة تسأل عن ماما وبابا. ثم طرق الباب مرة

أخرى بعنف، ودخل شخص ما، وساد صمت عجيب. ترى من القادم؟ لقد دق قلب الرجل بعنف واعتدل في جلسته، وعيناه تتساءلان، ونظر إلى الباب كأنه يتوقع سقوط صاعقة... ورأى حسيناً يدخل مسرعاً وسمعه يقول باضطراب:

لعل البنت وهي تسمعنا دائماً نتمنى على الله موت عمك — أرادت ...»

ولم تتم حديثها إذ دق الباب ودخلت زوزو. وما إن رأت والدها حتى رمت حقيبتها وجرت نحوه ضاحكة وقفزت إلى حجره وأحاطت بيدها عنقه ثم قالت وهي لا تسكت عن الضحك:

— هل اشتريت لي الشيكولاته كما وعدت؟

فزع يدها الصغيرة عن رقبتها بشيء من العنف، ووجدتها بنظرة قاسية ثم سألها بخشونة وهو يدفعها عن حجره:

— كيف تكذبين علي؟

فقالت وهي لا تكف عن الضحك وإن بدأت تدرك صعوبة الاستيلاء على الشيكولاته:

— في أي يوم نحن؟

— إنني أسألك كيف تكذبين علي؟

— اليوم أول أبريل... وقد علمت أنه يجب

على الناس أن يكذبوا فيه.. وهكذا قالت لي بثينة، وقد سألت (أبله) فأمنت على ما قالت بثينة، ولسكنها نهبت علي أن أختار كذبة سارة كي لا أؤذي أحداً... وقد اخترت لك أحسن كذبة!

فقطب وجهه وقال لها بشدة:

— لعنة الله عليك وعلى أول أبريل... هل

يصدق الناس طول العام كي يلهموا بالكذب في أول أبريل!...

وهنا فقط أدركت زوزو أنها أخطأت وأن والدها غاضب عليها حقاً، وأنها فقدت كل الأمل في الشيكولاته، فكفت عن الضحك وعلا بحياها الارتباك، واحمرت وجنتاهما من الحجل، ونظرت إلى أمها تستغيث بها. أما أبوها فقد قام متثاقلاً ودلف

الخلاص وهو الأثم الشرير الذي هم أن يقارف السرقة والقتل؟ ثم عمته المرحومة؟ إنه يدرك حالتها الآن بغير العقل الذي كان يصورها له وبمطف عليها بعد أن أمسى عطفه وقسوته لديها سيئين، فقد عاشت بأثمة حزينة تجتر الهموم والآلام، وكانت حياتها فرضاً ثقيلاً عليها وعلى الآخرين. ثم كانت قاسية شديدة، فوق كل احتمال، ومع هذا فكيف كان يمكن أن تكون غير ما كانت؟ ومن يخلو من جانب بل من جوانب كريهة؟ أليس هو في أعماقه قاتلاً سارقاً مداساً؟ وما هو إلا صورة تتكاثر وتعدد فتكون عالم الناس... ومع هذا فلا يجوز أن ينسى أن هذا الشر غالباً ما ينكشف عن ضعف وجهل وبؤس، كما انكشف شذوذ عمته عن رمل وشكل، وكما ينكشف نخبه وسوء نواياه عن محبة فائقة لأبنائه الأبرياء، وقد أذن الله فعالج الشر والبؤس برحمته، والرحمة أسمى حلم في الوجود، ولكنه لا يستطيع أن ينسى أيضاً أنها سبقت هنا بكذبة ابنته وموت عمته، فكيف يكون الموت والكذب من مميزات الرحمة؟

حقاً إنه مهما ادعى التأمل فسيتبقى أمامه ما يعجز عقله وبربكه. وإذا كان أمر الدنيا على هذا النحو فلن يمنع الدمع الذي تبعته مآسيها إلى العين الابتسام من اعتلاء الشفتين، ولقد ضاق صدره وأرقه المهاد فهتف من أعماقه:

— من لي بوزو الآن؟.. فإن ابتسامتها العذبة ونظرها الطاهرة ويدها الصغيرة لحقيقة بأن تصرف عني أفكار هذا الليل وتسكب في قلبي الطمأنينة والسلام...
نجيب محفوظ

بابا... يقولون إن عمتي توفيت...
فقام الرجل كالمجنون وحجج ابنه بنظرة هائلة فقال الابن:
حضرت المرضة الآن حامله هذا الخبر...
وها هي ذي واقفة تسأل عنك... تفضلي إلى هنا ياسيدي...

في ساعة متأخرة من ليل ذاك اليوم — يوم أول أبريل — جلس على افندي إلى جانب زوجته وكانت ما تزال في ثوب الحداد وقد أوى الأبناء إلى الفراش وخيم السكون على البيت. كانت المرأة صامته ولكن كان وجهها راضياً مطمئناً وبها مستريحاً وقد ولي عنها الدعر الذي لازمها أياماً خالتها دهرأ طويلاً

وكان على افندي يشعر شعور إنسان خطا قدما بغير وعي، وإذا به يرى ساعة تنقض على السكان الذي كان يشغل... قد كان السجن والرفض والدمار منه قاب قوسين أو أدنى؛ وها هو ذا يطمئن إلى مجلسه بين أسرته آمناً بمنجاة من كل دمار، يستقبل من الغد حياة رغدة مترفة، فسكن بالحياة من معجزات! وعلى رغم كل هذا لم يكن سعيداً تمام السعادة، ولم يصف ذهنه كل الصفاء واستمر في تأملات عميقة. لقد عاش طول عمره حياة راكدة راتبة؛ أما الساعات القلائل — القلائل!! — الأخيرة فقد ابتلى فيها بما لم يتبل به في عمره الطويل المديد إذ أثارت نفسه عقله وجذبات من بحيرة نفسه الآسنة محيطاً مضطرباً عاصفاً

لقد خلصه الله من العذاب، ولكن هل يستحق